**د/ إبراهيم أبراش**

**النخبة الفلسطينية: صناعة الانقسام وأوهام الانتصار (4)**

**الوطنية الفلسطينية ومنظمة التحرير ليسا ملكا يُورث**

إن كان الانتماء للوطنية وللمشروع الوطني يؤسِس لحالة فكرية غير متصالحة مع أيديولوجيا الإسلام السياسي التابع لمراكز قرار خارجية،ومع الأيديولوجيات الأممية التي تُنكر الوطنية،فإن هذا لا يعني التعصب الأعمى لكل من رفع راية الوطنية أو ادعى تمثيلها،فالوطنية سلوك نضالي على الأرض وليس راية تُرفع أو ملكا يُورَث. إن من يؤمن بالوطنية الفلسطينية تاريخا وهوية وثقافة وجغرافيا ويمارس هذا الإيمان كتابة وقولا وسلوكا لا بد وان يكون مستعدا لمواجهة كل من قَصَر وساوم وتواطأ عليها ،سواء كان ممن يرفعون راية الوطنية والمشروع الوطني زورا ونفاقا أو ممن ينتسبون للجماعات الدينية التي لا تخفي أنها تتبنى مشروعا إسلاميا يتجاوز الوطنية الفلسطينية.

لا اخفي أن تحفظي على التيارات الدينية يؤسَس على اعتبارات إيديولوجية عقلانية،ولكن الدافع الأكبر لهذا التحفظ مرده أنه من الخطورة تجاهل أولوية الحاجة الفلسطينية لمشروع وطني تحرري يعمل من أجل تحرير فلسطين وقيام دولة مستقلة كما هو حال كل الدول التي يتواجد فيها تيارات دينية،فهذه الأخيرة توظف الدين لخدمة مصالحها والدولة التي ينتمون لها،ولنا في إيران وتركيا وحتى مصر وتونس والمغرب خير شاهد على ذلك،أيضا من الخطورة تعريض الحالة الفلسطينية للصراعات والتجاذبات التي تؤدي إلى تقسيم المجتمع في هذا الوقت حيث الشعب الفلسطيني أحوج ما يكون للوحدة الوطنية لمواجهة الخطر الصهيوني الذي يهدد مجمل الوجود الوطني،كما أن الجماعات الإسلامية في فلسطين غالبيتها تدخل في حالة صراع وتصادم مع الوطنية والوطنيين الفلسطينيين.إن رفضا لواقع جماعات الإسلام السياسي في فلسطين يؤسس بالإضافة إلى ما سبق،أن محرك ومغذي هذه الأيديولوجيات غالبا ما يكون مصادر خارجية مما يؤدي إلى إلحاق القضية الفلسطينية بمراكز قرار خارجية،أي إنها إيديولوجيات تابعة وليست أصيلة، وهو أمر غير موجود عند جماعات الإسلام السياسي الأخرى ،فلم نسمع إخوان مصر يقولون إنهم تابعون لجماعة أو جهة خارجية،ولا تقول ذلك أيضا التيارات الدينية الحاكمة في إيران وتركيا وتونس والمغرب.

ولكن ،إن كان من الصعب المراهنة على جماعات الإسلام السياسي الفلسطينية في وضعها الراهن لأن تكون حاملا للمشروع الوطني ،فإن منظمة التحرير بوضعها الراهن غير مهيأة أيضا لاستنهاض المشروع الوطني .لسنوات والوطنية الفلسطينية مُصادرة من طرف تنظيم حركة فتح و بقية فصائل منظمة التحرير ،صحيح أن حركة فتح والمنظمة،وطِوال ثلاثة عقود،حافظتا على الوطنية الفلسطينية واستنهضتا الهوية والثقافة الوطنية وفرضتا القضية الفلسطينية على العالم كقضية شعب يناضل من أجل حريته واستقلاله... ولكن مع الدخول بالتسوية وتحول حركة فتح من حركة تحرر وطني إلى سلطة وحكومة بما ترتب على ذلك من إبهاظ الحركة وتحميلها كل أوزار وأخطاء التسوية والسلطة دون تقدم ملحوظ نحو الدولة والاستقلال،ومع التغييب المتعمد والممنهج لمنظمة التحرير الفلسطينية بمدلول كل كلمة من كلماتها ،ومع استمرار أزمة اليسار الفلسطيني وعجزه عن تشكيل حامل أو رافعة للمشروع الوطني بل عجزه عن توحيد نفسه حتى ضمن أقل أشكال التوحيد أو التنسيق....فإن الوطنية الفلسطينية أصبحت كاليتيم الذي لا يجد من يتبناه أو شعار يوظفه هذا الطرف أو ذاك دون امتلاكها القدرة على دفع استحقاقاته.

لا غرو أن منظمة التحرير الفلسطينية تعتبر رسميا الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني،ولكن ماذا تعني منظمة التحرير بالملموس على أرض الواقع ؟ أين مؤسساتها التمثيلية من مجلس وطني واتحادات شعبية وجيش تحرير الخ ؟ أين المنظمة مما يجري في قطاع غزة ؟ وهل ما زالت المنظمة تمثل أهل غزة ؟ وإلى متى سيصبر الشعب على المنظمة والسلطة ويمنحهما الفرصة تلو الأخرى فيما الوطن يضيع من بين أيدينا شبرا شبرا ؟ إلى متى سنستمر في استعمال الممارسات الإسرائيلية وحركة حماس كمبرر وذريعة للسكوت على حال المنظمة وفصائلها وسلطتها؟،وإذا كان استنهاض المشروع الوطني مشروط باستنهاض منظمة التحرير الفلسطينية ،وإذا كانت حماس لا تريد الدخول في منظمة التحرير،فلماذا لا توجد أية جهود أو محاولات لاستنهض منظمة التحرير بدون حماس؟ ولماذا يسير وضع حركة فتح التنظيمي من سيئ إلى أسوء ليس فقط في قطاع غزة بل وفي الضفة والشتات أيضا؟.

حال منظمة التحرير، التي ننتمي لها ونتمنى استنهاضها، لم يعد يرضي أحدا ،وللأسف إن استمر حال المنظمة على ما هو عليه فلن يتبقى منها إلا صفتها التمثيلية الموروثة من زمن ولى ،وهي صفة تُجبر الدول والمنظمات الدولية على التعامل مع المنظمة بروتوكوليا ،بالإضافة لهيئة قيادية متخشبة تسمى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير .إن أشخاص قيادة المنظمة والمُفترض أنهم يمثلون قيادة الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج ، تجاوزهم الزمن منذ زمان وتحولوا لمجرد ذكريات من الماضي يرددون خطابا فارغ القيمة والمعنى ولا يتغير ولا يتبدل إلا بما تستدعيه المناسبات ،وغالبيتهم جاءت بهم الصدفة إلى المنظمة، ومنهم من فشل أو فُصل من حزبه فتمت ترقيته من طرف الرئيس لدرجة أعلى! .من يُفترض أنهم قيادة منظمة التحرير وقيادة الشعب التي لا تعلوها قيادة ويفترض ألا سيادة فوق سيادتها أصبحوا موظفين كبار في سلطة تُمول من جهات أجنبية إن لم تكن معادية فليست صديقة للمشروع الوطني التحرري ،وتخضع كل خطوة من خطوات هذه القيادة وكل قرار من قراراتها وكل رجل أمن من رجالها للإرادة الإسرائيلية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ويعتاشون من وراء ما تقدمه السلطة لهم ولأفراد عائلاتهم من رواتب ومساعدات وتسهيلات،وهناك بند في ميزانية السلطة خاص بمنظمة التحرير،وغالبية عناصر هذه الفصائل أيضا يعتمدون في معيشتهم على راتب السلطة.

أما القيادة الحالية لحركة فتح العمود الفقري للمنظمة وللمشروع الوطني،فحالها ليس أفضل من حال قيادة منظمة التحرير .ولو نظرنا لأعضاء اللجنة المركزية لوجدنا كل منهم منشغلا بمهمة لها الأولوية على الانشغال الوطني ،فمنهم رئيس جامعة، وآخر رئيس لجنة اولمبية، وثالث رئيس مؤسسة ياسر عرفات ،ورابع رئيس مؤسسة مالية – بكدار- ،وخامس وزيرا للشؤون المدنية، وسادس سفيرا ،وسابع كبير مفاوضين لمفاوضات فاشلة ،وأربعة آخرون غير متابعين ما يجري حولهم لكبر سنهم الخ ،وعيون جميعهم على الراتب والامتيازات وضمان مستقبل أبنائهم ،وهم فوق كل ذلك خارج إطار المحاسبة على أي تقصير في العمل الوطني إلا من جرؤ على التطاول على الرئيس .وللأسف كان الفتحاويون والوطنيون يأملون من المؤتمر السادس للحركة أن يشكل منعطفا مصيريا في مسيرة الحركة يُعيد لها الاعتبار ويؤهلها لمواجهة تحديات المرحلة الراهنة والاستعداد لمرحلة ما بعد حماس، إلا أن الذي جرى أن مؤتمر فتح شكل نكسة جديدة للحركة وكل أبناء فتح اليوم يشعرون بذلك ،بعضهم يجرؤ على البوح والتصريح علنا عن حالة الغضب التي تنتابهم ،وآخرون يعانون بصمت أو يتحدثون بالهمس إما خوفا على الرتب أو خوفا من أن يصب انتقادهم لحركة فتح في صالح حركة حماس .

 إن كانت قيادة المنظمة وقيادة فتح وكل قيادات الفصائل تمارس عملها تحت الاحتلال وبرضاه وإشرافه وكلهم يحملون بطاقة v.i.p الإسرائيلية، فكيف يمكن المراهنة على هؤلاء لاستنهاض منظمة التحرير والمشروع الوطني التحرري ؟. إن القيادة الحقيقية للمشروع الوطني التحرري لن تكون إلا لمن يملك الإرادة و القدرة على التصادم مع الاحتلال وليس التصالح والتعايش معه ، إن من يتعايش مع الاحتلال وغير مستعد لمواجهته لا يمكنه أن يقود مشروعا تحرريا وبالتالي غير مؤهل لقيادة شعب ،وللأسف وضمن واقع المنظمة وحركة فتح نخشى أن يأتي يوم يقول فيه البعض أنه لم يبقى من المنظمة إلا صفتها التمثيلية ،ولم يتبق من حركة فتح سوى قبر أبو عمار.

ليس هذا تشكيكا بوطنية حركة فتح وبقية القوى الوطنية ،وأني على يقين بأن الانتماء لفلسطين وللوطنية متأصل في قلوب وأفئدة كثيرين من قيادة المنظمة وفتح وبقية الفصائل وهم غير راضين عما آل إليه أمرهم ويشعرون بأنهم مقصرون بواجبهم ،ولكن العجز والإحباط من جانب وصيرورة معيشتهم معتمدة على ما تمنحه السلطة من راتب وامتيازات من جانب آخر يدفعهم للصمت . إن في ثنايا نقدنا إحساس بالطريق المسدود الذي وصلت إليه كل القوى السياسية الفلسطينية ودعوة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وللاستفادة مما يجري من حولنا من متغيرات،،وهو الأمر الذي يستدعي جهدا من كل الوطنيين لإعادة الروح للقضية الفلسطينية وللوطنية الفلسطينية التي باتت مهددة من مصادر متعددة ،إن كانت إسرائيل على رأسها فليست الوحيدة.

Ibrahemibrach!@gmail.com